مؤتمر ظاهرة التكفير .. الأسباب .. الآثار .. العلاج

المحور ٢ - البحث ٣

ظاهرة التكفير في الأمم الأخرى

تأريخ التكفير في الكنائس الغربية ومآلاته

د. عادل محمد أحمد سلمان

التكفير والهرطقة:

إن ظاهرة التكفير داخل الدين الواحد أو بين معتقدي الأديان الأخرى ليست جديدة إنما هي قديمة قدم الأديان ، فهي تعتمد أساسا على تأويل النصوص و المصطلحات الدينية لمصلحة وجهة نظر معينة. ولكن نجد أن الديانتين الرئيستين اللتين سبقتا الإسلام (اليهودية و المسيحية) لم يستعملا كلمة (تكفير) إنما كانت الكلمة المستعملة كلمة (تجديف) أو كلمة (الهرطقة) وهي في غالبية الحالات تؤدي نفس المعنى، باعتبار أن المهرطق صاحب مذهب منحرف خارج عن الطريق القويم، وعلى هذا الأساس يعتبر سيدنا عيسى عليه السلام عند بعض رجال الدين اليهود مجدفاً أو مهرطقاً.

إن كلمات مثل التكفير، البدعة أو الهرطقة تلتقي جميعها في نفس السياق.فالديانتان المسيحية واليهودية لم تتضمنا استعمال كلمة التكفير– بنفس المعنى الذي تبناه المتشددون الدينيون في الدين الإسلامي الحنيف.وكان الشائع فيها استعمال كلمة (هرطقة) والتي تعني البدعة في الدين، وهي كلمة إغريقية الأصل تعني اختيار رأي وتفضيله على غيره، ثم تطورت معاني أخرى للكلمة لتعني وتشير إلى مذهب من المذاهب الفلسفية أو مدرسة فكرية معينة، ثم أخذت الكلمة طريقها إلى الدين فأصبحت تطلق على الجماعات داخل الدين ذات الآراء المختلفة عن الاتجاه الرسمي للدين وصارت الكلمة مرادفة للزندقة والتي أصبحت تعني إدخال معتقدات جديدة إلى الدين أو إنكار جزء منه.

والآن ما الهرطقة في المسيحية ؟

شاع استعمال كلمات هرطقة، بدعة، زندقة، تجديف، وكفر المعاني التي استعملت بها في المسيحية – تقريباً – وفيما قبلها من العصور، ولكن كانت الهرطقة هي أشد أنواع المروق على الدين حدة وهي من الأمور التي لا

تتسامح معها الكنيسة عادة.

يحاول رجال الكنيسة تعريف الهرطقة تعريفا قانونيا وقد توصلت الكنيسة إلى التعريف التالي لمعنى كلمة (هرطقة) " إذا أنكر أحدهم بعد أن تلقى العماد وهو محتفظ بصفة مسيحي إذا أنكر بإصرار أحد الحقائق التي تتعلق بالإيمان الإلهي والكاثوليكي (الجامع) أو شك بها يكون مهرطقاً، فكل عقيدة تتناقض مع الإيمان الحقيقي تشكل كفرا أي غياب فضيلة الإيمان الموحي بها "، وبناء على هذا التعريف يعرف ج.ويتلر في كتابه الهرطقة في المسيحية، ثلاثة أنواع من الكفر:

١- الكفر السلبي الصرف: وهو كفر الوثنيين الذين لم يعرفوا المسيح و هو كفر ناجم عن الجهل ولهذا فهم غير مذنبين.

٢- الكفر السالب المتصف بالرفض للإيمان والالتحاق بالحقائق الموحي بها أو رفض فكرة الوحي أو عدم البحث بجدية في مفهوم وإمكانية الوحي.

٣- الكفر الايجابي: وهو يختلف عن سابقيه بأنه يأتي بعد تلقي فضيلة الإيمان بالوحي الإلهي، يأتي ليدمر هذه الفضيلة منطويا على الجحود أو إنكار الإيمان بصورة إرادية.وعليه لتكون مهرطقا بهذا المعنى يجب أن يكون المرء معمدا ثم بعد ذلك يختار أن يقع في الخطأ الذي يتعارض مع الوحي الإلهي بحسب ما تفترضه الكنيسة الكاثوليكية بواسطة أحد أعضائها المعصومين عن الخطأ.

نشأة المسيحية:

نشأت المسيحية كما هو معلوم وهي متهمة بالهرطقة، وإن سيدنا عيسى عليه السلام واجه عداء مفرطا من اليهود واتهموه بأنه جاء لينقض كل ما عرفته اليهودية من تراث وتعاليم دينية عن سيدنا موسى عليه السلام والأنبياء. واتهموه بأنه بأفعاله وكلماته يعمل على نقض ناموس موسى والأنبياء،

واتهموه أيضا بعدم تقديس السبت كما أمرهم سيدنا موسى عليه السلام، وهكذا واجه سيدنا عيسى الكثير، واتُّهم بالهرطقة، وتحت هذا الجو العدائي نشأت المسيحية الأولى وكهنة المعابد اليهودية كانوا لها بالمرصاد.

لقد بدأت المسيحية تنتشر وسط اضطهاد كبير واسع من الإمبراطورية الرومانية ومن قادة الكهنة اليهود، ولكن المسيحية في داخلها حملت الكثير من معاني التسامح وقبول الآخر كما بشر بها سيدنا عيسى عليه السلام بنفسه.فقد حمل الإنجيل بين طياته الكثير من الوصايا التي تدعو إلى التسامح وحث الإنسان في أن يكون مُرْضيا لكل خصومه وصافي النفس إضافة إلى محبة الأعداء وضرورة أن نغفر للآخرين زلاتهم وأنه يجب على المؤمن الحق ألا يدين الآخرين مهما كان السبب.

إن النظام الاجتماعي الذي أقامه الحواريون بعد رفع سيدنا عيسى عنهم والتزم به معهم المتنصرون الأوائل كان نظاما صارما وجوهريا وكانوا قلبا واحدا، وكانت ملكيتهم للأشياء جماعية، وكل الممتلكات مشاعة بينهم. واستمر هذا الوضع المتسامح والقابل للرأي الآخر فترة زمنية طويلة امتدت لأكثر من أربعمائة عام، ولكن بدأ الخلل يظهر بين التطبيق وبين ما هو موجود في الإنجيل وكان جميع مطلقي الهرطقات يحسون بهذا البعد الكبير بين المسيحية كما هي موجودة في الإنجيل وكما مارسها المؤمنون الأوائل وبين توجهات ورؤى وممارسات الكنيسة الحالية، في واقع الحياة اليومية من حياة مترفة وطقوس غريبة شملت الجميع حتى البابا نفسه. ومع مما ذكرناه من أن سيدنا عيسى عليه السلام كان جل تعاليمه عن المحبة والتسامح والغفران ، بل كان جل رسالته الدعوة لقبول الآخر، والتعامل معه بحب واحترام، وقد سار قادة المسيحية الأوائل هذا المسار في فترة الاضطهاد الديني في ظل الامبراطورية الرومانية، ولكن سرعان ما تبدل الحال وصارت القسوة

والغلظة والاتهامات الخطيرة بالمروق والهرطقة والزندقة هي نصيب كل من يكون له رأي يخالف به رأي الكنيسة الرسمي ، ومع انشقاق الكنيسة الآرثوذوكسية والكنيسة الإنجيلكية (الإنجيلية) وحركة الاحتجاج الديني (البروتستانت) إلا أن هذه الصفة ظلت ملازمة للتيار الرسمي المسيحي. وهنالك نشأ نوعان من الخلاف ، خلاف إرادي يسمى انشقاقا وخلاف عقدي يسمى هرطقة.

بداية استعمال مصطلح الهرطقة:

بعد اختفاء سيدنا عيسى المفاجئ غير المتوقع ارتبك الأعضاء الأوائل في المسيحية واتخذوا رؤى ومسارات مختلفة ومن ثم ظهرت آراء متباينة في العقيدة. وسرعان ما بدأت الخلافات حول:

- مفهوم الإيمان المسيحي والطقوس الدينية.
- مفهوم الثالوث الإلهي. (الأقانيم الثلاثة)
- طبيعة المسيح. (ناسوت، لاهوت)

إن البدعة الدينية في المسيحية تعبر عن رأي غير سليم أو غير متسق مع المبادئ الكهنوتية للكنيسة المعنية، ويعتبر انحرافا عن المبادئ المؤسسة لهذه السلطة وهذا الانحراف قد يتناول العقيدة وفي هذه الحالة تعتبر البدعة هرطقة يستحق مرتكبها أقسى ألوان العقاب، أما إذا كانت تشمل الطقوس أو النظام الكهنوتي فإنها تعتبر بدعة أو انشقاقا. وعليه لتكون هنالك هرطقة لابد أن يكون هناك مبدأ عقدي أساسي يستند على حقائق موحى بها من الله، وأن تكون هناك كنيسة تتبنى هذه العقائد و تأخذ بها وبذلك أصبحت هذه العقيدة سلطة رسمية. وتعرف الكنيسة الكاثوليكية الهرطقة بأنها أي رأي ديني لا يتفق مع الإيمان الكاثوليكي، أو أي خطأ إرادي تمسك به صاحبه مع أنه متعارض مع مبادئ إيمانية موحى بها وتم تعليمها في الكنيسة،

وعلى هذا الأساس تم اعتبار الروم الآرثوذوكس هراطقة؛ لأنهم خالفوا ما تم الاتفاق عليه في المجامع المسكونية السبعة الأولى. لذلك كان الخلاف بين الكاثوليك والآرثوذوكس هرطقة؛ لأنه قام على أكثر من عشر مسائل عقدية تتضمن عصمة البابا ونيابة المسيح على الأرض والاستحقاقات والغفرانات. لذا فإن الكنيسة الآرثوذوكسية تنظر إلى كنيسة روما على أساس أنها هرطقية. ويمكن حصر الخلاف بين الكاثوليك والآرثوذوكس في نقطتين رئيسيتين مع أنه أعمق من ذلك– فهو يشمل في الأساس عصمة البابا عند الكاثوليك واتهام الآرثوذوكس للكاثوليك بالفهم الأسطوري للمسيحية وإدخال الوثنية بها. وقد استعمل هذا المفهوم، مفهوم الهرطقة حتى في الكنيسة البروتستانتية والتي كانت في نشأتها الأولى تعتبر هرطقة في ذاتها، استعمله (كالفن) في إدانة (سيرفيه)، واتهم (لوثر) كل القائلين بتجديد العماد (التعميد وهو الاغتسال بالماء المقدس) أنهم هراطقة. كما سنرى لاحقا.

ومع أن المهرطق الفرد لم يكن يشكل خطرا على الكنيسة إلا إذا كون جماعة إلا أن الكنيسة الكاثوليكية قامت باتهام أفراد بالهرطقة وأحرقتهم بالنار مثل إتيان دوليه الذي أنكر خلود الروح وجاليلو الذي أنكر حركة الشمس ثم جان دارك التي عوقبت للهرطقة لأسباب سياسية، وكان أول من اتهم الهراطقة بتهديد وحدة الكنيسة أسقف أنطاكيا اغناطيوس في القرن الأول الميلادي. وقد تم إيقاع عقوبة المهرطق على المتدينين الذين شكلوا فرقة دينية وتطوروا حتى كونوا كنيسة بعينها مثل الآريوسيين والكالفينيين واللوثريين والأنجليكان.

وكانت المبادئ الإيمانية الأساسية في الكنيسة قد تم تلخيصها في كتابات قوانين الإيمان الذي يعتقد الباحثون أنه تم وضع بواسطة تلاميذ

سيدنا عيسى عليه السلام. وأدى نمو الهرطقات إلى التوسع في كتابات الإيمان والتفصيل فيها، وعقدت مجامع الكنيسة التي كانت لها سلطة عليا، فكان مجمع نيقية ٣٢٥م الذي قام بإكمال قانون إيمان الرسل وركز على عقيدة الثالوث، ثم توالت المجامع في الأساس للرد على الهراطقة والمارقين فكان مجمع أفسوس عام ٤٣١م الذي كان موجها لكشف هرطقة النساطرة، ومن بعده مجمع خلقيدونية في عام ٤٥١م. ولكن أثر هذه المجمعات لم يكن كافيا فكان نشوء ما يسمى بالقانون الكنسي الذي جاء بتأثير من الدولة الرومانية. ففي نهاية القرن الخامس الميلادي تم جمعت قرارات البابا والفتاوى البابوية في مجموعة واحدة، وتطورت تلك المحاولات حتى تم إصدار مجموعة رسمية تحمل اسم البراءات البابوية الرومانية إلى أن جاء البابا بونوا الخامس عشر حيث أصدر كتابا أوجز فيه القوانين المسيحية في عام ١٩١٥م ، وهو الكتاب الذي تَحْرِم الكنيسةُ الكاثوليكية بموجبه ..." كلَّ من ينتسب إلى أية جمعية سرِّية تتآمر على الكنيسة وعلى السلطات الشرعية) ونص القانون أنه إذا أنكر أحدهم بعد أن يكون قد تلقى العماد وهو محتفظ بصفة مسيحي إذا أنكر بإصرار إحدى الحقائق التي تتعلق بالإيمان الإلهي والكاثوليكي أو شك بها يكون مهرطقاً.

اضطهاد الهراطقة:

جاء الاضطهاد الديني واتهامات الهرطقة ممثلا للجانب البشع للسلطة الدينية ثم التطرف المتصاعد لحملة لواء الدين المسيحي في طورها الأول ، وأصبح مهرطقا كل من يرى الأساقفة أنهم خرجوا عن الدين الصحيح، وأن الواجب إعادتهم ولو بالقوة إلى الطريق القويم. وقد أدى تنامي هيمنة رجال الدين وسطوتهم (الأساقفة) إلى درجة أن منهم من نادى بالتخلص من شرور الحياة والجسد الذي يتملكها، والابتعاد عن شرور حياة الدنيا. وقد كونت

الكنيسة من مجموعة الأخوة الدومنيكان دواوين لاستئصال الهرطقة التي يعتبرها البعض البداية الحقيقية لمحاكم التفتيش الكهنوتية التي مثلت ذروة التعصب الديني وعدم التسامح والإرهاب ، وتم استخدمت وسائل قمع وتعذيب وحشية شملت التقييد بسلاسل الحديد ، وتعليقهم ووضع الثقال الحديدية على أرجلهم أو إجبارهم على المشي على جمر من نار ، أو نزع أظافر اليدين والرجلين، أو الموت غرقا أو تغطية وجه المهرطق بقطعة قماش وشدها على وجهه وصب الماء الساخن عليه حتى الموت أو إحراقهم أحياء. ويؤدي جرم الهرطقة إلى الحرمان الجزئي أو الكامل من الأسرار المقدسة والقداس الإلهي وصلوات الكنيسة أو حتى من الدفن في أرض مسيحية.

أصبح اضطهاد الهراطقة أكثر عمومية وأكثر شمولا بفضل دعم السلطة المدنية (السلطة الزمنية) وقد استمر هذا الدعم واستمرت الهرطقات، ولكن بعد بروز البروتستانتية قلت الهرطقات لدرجة كبيرة في الكنيسة الكاثوليكية؛ لأن البدع البروتستانتية استطاعت استيعاب كل المنشقين الذين يحملون رأيا مخالفا للرأي الرسمي.

انعقد أول مجمع مسكوني في نيقية في ٣٢٥م لتحديد ما يجب الإيمان به وما يجب رفضه واعتباره هرطقة. وكان في ذلك يواجه ايديولوجيات غريبة إذ كانت الثقافات الموجودة في تلك الأزمنة ثقافات دينية ذات طابع قبلي، وفي الوقت نفسه كانت فلسفة الرواقيين والأيقوريين سائدة، وعليه كان على الكنيسة أن تكون لديها عقيدة واضحة ودقيقة للحفاظ على إيمان المسيحيين الأوائل الذين طال انتظارهم للملكوت الذي وعدهم به الإنجيل وبأنه أوشك – والذي كان يعرف عندهم بعودة المسيح – فقد عاش كل المتنصرين الأوائل يترقبون هذا الحدث على وعد العودة السريع. وقد كانت الحقائق الدينية في تلك الفترة ضبابية للغاية، فقد كان يتم التفسير للحقائق الدينية وفق مشيئة

من الذين يتصدون للفهم الديني، وفي وسط تلك الخلافات وذلك الجدل ولد علم اللاهوت المسيحي حول شخصية المسيح وعلاقته بالله والإنسان، وكذلك علاقة المسيحية بناموس سيدنا موسى عليه السلام، وبالتحديد طقس الختان وإمكانية قبول الوثنيين المهتدين إلى المسيحية، ومدى الالتزام بشريعة سيدنا موسى عليه السلام. وكانت فرقة الابيونيين من أوائل الفرق التي تم اتهمت بالهرطقة؛ لأنهم كانوا مرتبطين بالشريعة الموسوية ويرفضون ألوهية المسيح، وكذلك الآريوسيون الذين كانوا ينادون بعدم مساواة المسيح بالله، وعدم اعتباره واسطة بين الله والإنسان ، ولكن آريوس مؤسس المذهب رغم إيمانه المسيحي القوي، أتُّهِمَ بالهرطقة و الكفر وطُرِد. وكان الغنوصيون الذين مزجوا الفلسفة بالدين المسيحي أيضا من أهم هراطقة هذه الفترة.

انعقد مجمع نيقية لحسم هذه القضايا ولمناقشة ما أثاره المهرطق آريوس والرد على هرطقته وأُدين. لكن ذلك حدا بالقائمين على أمر الدين المسيحي في زمن القديس اثناسيوس إلى كتابة قانون الإيمان المسيحي، ليصبح ملزما لكل الكنائس في ذلك الوقت. وعقد مجمع افسوس الثاني في العام ٤٤٩ م والذي كان من أبرز مقرراته الحكم بهرطقة النسطوريين وكذلك الحكم بهرطقة ممنون. ورفض البابا بعضا من مقرراته، ولكن في عام ٤٥١ م عقد مجمع خلقدونية لمراجعة ما اتفق عليه في مجمع افسوس، وكان من مقررات هذا المجمع الحكم بهرطقة أوطاخي ثم حرمانه. ومن أكبر معالم الهرطقة في تاريخ المسيحية اتهام نسطور بها، وكان أسقفا في القسطنطينية، بعد أن دعا نسطور إلى تسمية السيدة مريم أم المسيح بدلاً عن أم الله، وتم حرق كل كتبه وحرمانه في مؤتمر أفسوس عام ٤٣١م واتهامه بالهرطقة، وتم هذا الاتهام بالاتفاق بين البابا كيرلس الأول والإمبراطور ثيودسيوس الثاني، وتم عزل الأساقفة الذين أيدوا نسطور واجبار آخرين على إنكار النسطورية، وفي

مـؤتمر خلقدونيـة عـام ٤٥١م تم التأكيـد علـى هرطقـة نـسطور. ولكـن مـع الحرمان استطاعت النسطورية أن تعيش، وما زالت تعمل تحت اسم الكنيسة الأشورية. وقد حاول القساوسة إغلاق ومنع الكنائس النسطورية والآريوسية وعنـدما فـشلوا أحرقوهـا بالنـار، وطُـرِدَ الآلاف مـن القـساوسة باعتبـارهم مهرطقين وعذب السامريون ومعهم آخرون اتهموا بالهرطقة وبلغ عدد القتلى عشرين ألفا وهرب خمسون الفا.

واذا كـان مفهوم الهرطقة لم يتغير بتغير الزمان في الكنيسة الرومانية ولكن على المستوى العملي فإن المهرطق في القرن التاسع عشر الميلادي لم يعد منبوذاً يجب الابتعاد عنه. أما في البروتستانتية فإنه لا يوجد تحديد نهائي ملموس للإيمان كما قال فان درلي وأصبح الوحي يعني عندهم عمل العناية الإلهية المستمر على النفوس الداخلية – أي أنه لم يعد الإبلاغ بكلام الله مرة واحدة وإلى الأبد، ولكن مع ذلك فإن مصطلح الهرطقة لازم المفكرين البروتستانت الأوائل؛ لأن التصورات الكاثوليكية لا تزال في عقولهم، ففي بداية الاختلافات الدينية نظر إلى الهرطقة من جانب البروتستانت على أنها جريمة يجب أن تتعرض للعقاب مِنْ السلطات المدنية وتم أحرق سيرفيه عام ١٥٥٣م بأمر مجلس المدينة بتوجيه من كالفن. مع إنكار لوثر أنه مهرطق؛ لأن صكوك الغفران التي انتقدها ليست ضرورية للخلاص، وإعلانه أنه لا يمكن مكافحة الهرطقة إلا بكلام الله؛ لأنه ينير القلوب، ولكن عندما اجتاحت ثورة الفلاحين وكادت تقتلع الدولة وافق لوثر على إعدام الهراطقة من الفلاحين. ثم إنه ألزم اليهود بالإيمان قسرا بيسوع. و بعد أن زال الخطر في الثورة بدأت الكنائس الألمانية أكثر احتراما للرأي الآخر والضمير الفردي الذي كان في الأساس هو سبب وجودها واتجاهها العقدي. إلا انه بمرور الزمن وبرسوخ مبدأ حقوق الإنسان الليبرالي في الغرب اختفى هذا المفهوم كما اختفت معه كلمة (بدعة).

ويعتمد الآرثوذوكس على عقاب الهراطقة على ما ورد في متى الإصحاح الثامن عشر ١٥–١٧، الذي يفسر القسوة على الهراطقة بأنها فعل محبة رحيم يهدف إلى حماية الآخرين من التأثر بالهرطقة، أي أنه يبدأ عقاب المهرطق بينك وبينه فإن لم يهتم لك ولم يستمع فليكن معك شاهد أو شاهدان وبعد ذلك إذا رفض الاستماع فيجب إبلاغ الكنيسة و إذا رفض الخضوع للكنيسة يكون مثله مثل الوثني.

التوبة من الهرطقة:

لقد قامت الكنيسة بوضع شروط وضوابط لعودة الخارجين عنها – الهراطقة – فإذا كان الشخص العائد أو التائب قد تلقى التعميد الرسمي وتهرطق بعد ذلك فإنه لكي يعود إلى الكنيسة عليه قصاص يعتمد على درجة الهرطقة، قد يكون طويلاً وصارماً، ولكن إذا كان المهرطق قد تعمد من كاهن مهرطق فإن بعض الكنائس تشترط عماداً جديداً، ولكن القديس أوغسطين فرض رؤيته في عماد الهراطقة إذا ما تم باسم الأب، الابن وروح القدس فإنه عماد مقبول إذا تم على الوجه الذي ترتضيه الكنيسة ويكفي عندئذ وضع اليدين على الرأس لتتم التوبة مع بقاء احتمال إعادة طقس العماد قائما، أما في الكنيسة الشرقية فإن التوبة للهراطقة اللاتينيين تتم عبر تجديد سر التثبيت وتلاوة صفة لإعلان الإيمان، بل إن الإنسان البروتستانتي العائد إلى الكنيسة الشرقية كان لابد من إعطائه سر التثبيت.

أما عند البروتستانت فلا مانع من استقبال الكاثوليك والمنشقين استنادا إلى مقطع من الرسالة إلى اهل افسس (هنالك رب واحد وإيمان واحد وعماد واحد ولله واحد وأب للجميع.....) وعليه فإن عماد الكاثوليك صحيح لدى البروتستانت مع تشويه معناه ولكن بعض الكنائس الانجليكانية تعيد العماد للمهرطق العائد.

أثر النظام الكهنوتي:

إن فكرة الكنيسة تقوم علي أن المحافظة على العقيدة الرسمية المسيحية وتفسير محتويات الكتاب المقدس من اختصاص الكنيسة فقط وهذه الرؤية أسهمت لحد كبير في إطلاق لفظ الهرطقة على كل المناوئين وإنزال العقوبات القاسية عليهم. وتقوم العقيدة المسيحية على أن البابا هو خليفة المسيح على الأرض ووريث القديس بطرس في الغرب.[٤] وقد يكون هذا النظام الكهنوتي الموجود في المسيحية ساعد علي إطلاق هذا الفهم على الآخرين؛ لأن وظيفة الكاهن في الأساس هي احتكار المعرفة الدينية وإعطاؤها للضالين والمنحرفين، وهذا يجعل من السهل على الكاهن اتهام من يشاء بالهرطقة. و بتطور الديانة المسيحية و انتشارها قوي هذا المفهوم، وأخذ سلطة مطلقة في القرون الوسطي، إذ أصبح الكهنوت في حد ذاته سلطة سياسية، والحكم الذي يصدره الكاهن علي أي فرد بالهرطقة قد يؤدي به إلى الطرد أو التعذيب أو السجن أو المطاردة أو حتى القتل. يقوم المجمع الكنسي عادة بتعيين الأساقفة الذين يقومون بتعيين البابا ، وأدى ذلك لنشوب خلافات وحروبات طاحنة حول منصب البابا الذي أصبح يمتلك السلطة الدينية والدنيوية في الألفية الأولى للمسيحية.وقد أدى احتكار المعرفة هذه من قبل الكنيسة إلى عنف وتطرف الكنيسة، وكانت الكنيسة في فترة نضجها ترفض الآخر إلى حد إلغائه، وربما تكون الكنيسة قد ورثت هذه السلطة المتطرفة من اليهودية، فنجد في اليهودية أن هنالك معمودية اختصها الرب بأمر الكهنة ورعاية المعبد والدين. وللعازر بن هرون الكاهن وكالة حراسة بيت المقدس. فسبط لأوي له كل الحق في خدمة الهيكل، وكل ما يترتب على فهم الشريعة الموسوية وتفسيرها.وقد اختصت عائلة هرون بالخدمة الداخلية للهيكل، وكان اللاويون متوسطين بين الكهنة والشعب وكانوا لا يعطون

من أرض الميعاد بسبب هذه المهام الكهنوتية وكان التعبير عن إرادة الرب يتم عبر الكاهن وحده. إن مثلث الكهنوت في المسيحية مثله تماماً مثلث اليهودية فهو مثلث متساوي الأضلاع ، يمثل الرب فيه رأس المثلث ثم يليه الكاهن والذبيحة ، الكاهن يختاره الرب والذبيحة يختارها الكاهن. وهنا تكمن خطورة مثل هذا النظام الذي يكون فيه الكاهن مختارا من قبل الرب وهو يعمل كحارس للنعمة وله سلطان لأنه مدافع عن الرب. ومع أن الرسول بولس قد جدد في رسالته الأولى إلى أهل تيموثاوس طريقة تنظيم الكنيسة واختيار القيادات إلا أن الكنيسة في بدايتها قد سارت بهذا المبدأ والسلطة المطلقة، خاصة عندما ارتبطت تلك السلطة بالسلطة الزمنية. واحتكار المعرفة الحقيقية من قبل الكنيسة وحدها أدى إلى العنف الأصولي الشديد ضد معارضيها فكانت أساليب الإرهاب والقمع والتعذيب البشعة شاهدا على ذلك، وعند امتزاج هذا الاحتكار بالسلطة ازدادت قوة الكنيسة وسلطتها وأصبحت الهرطقة جريمة شنعاء يعد من يمارسها أو يدعو إليها خارجا عن تعاليم الكنيسة، ومعاديا للملك ويمكن قبول أي اتهام أخلاقي ولكن لا يمكن قبول الاتهام بالهرطقة.

وقد قاد ذلك إلى محاكم التفتيش وملاحقة الهراطقة والحروب الصليبية الداخلية والخارجية، ولكن نجد الكثير ممن يوصفون بأنهم هراطقة يرون أنفسهم إصلاحيين أو مجددين أو أنهم يعملون على تنقية العقيدة وتخليصها من الشوائب، وأنهم أصبحوا يفهمون العقيدة بصورة أصلية، وأن الجماعة هي التي انحرفت عن العقيدة الأصلية.

التحالف بين الإمبراطور والبابا:

لم تكن المسيحية في بداياتها قاسية أو متعنتة على الآخرين بل كانت تقبل الرأي الآخر وتتسامح مع معارضيها. ولكن بعد أن تحالف البابا مع

الإمبراطور قويت سلطة البابا وأسهم البابوات في إصدار مراسيم من الإمبراطور تمنع الهرطقة وكان يتم في ذلك الوقت نفي المهرطق أو إدخاله السجن. وقد كان للتحالف الذي ينشأ بين الإمبراطور و البابا دور كبير في اعتبار كل حركات الإصلاح هرطقة و كفرا ، فقد أصدر بعض الأباطرة مراسيم تحرم أي فكرة تجديدية وتدمغها وتصمها بالهرطقة، واعتبر الرهبان الذين يدلون بآراء مخالفة هراطقة، وبذلك تم كممت الأفواه ومنع أي قدر من التأويل و الاجتهاد في النصوص، مما أدى إلي تحويل العقيدة المسيحية إلى دكتاتورية يكون قرار التكفير فيها – من أي جهة كان – معرضا الشخص للقتل في ظل تحالف الدولة والكنيسة، الكنيسة سلطة تشريعية والدولة سلطة تنفيذية.

وبهذا التحالف تم إلغاء ما تبقى من حرية في تأويل النصوص الدينية، وبذلك تم تحويل كل النصوص الدينية وآراء رجال الكنيسة ثم تحويلها إلى نصوص مقدسة لا يحق لأي فرد مهما كان المساس بها أو معارضتها، مما أدى إلى تحويل الكنيسة إلى ديكتاتورية دينية، وأصبح قرار التكفير للكنيسة تطلقه على من تشاء في أي وقت تشاء معرضة حياته للموت. وقد نشأ عن ذلك تكريس للعنف اللاهوتي وبتوجيه من البابا أمر الإمبراطور بإغلاق الكنيسة الآريوسية التي أسسها الراهب آريوس ٢٥٦–٣٣٦م والذي كان قد قال بأن الكلمة ليست الله بل مولود من الله، فهو لا يشاركه طبيعته، وقد استطاع آريوس أن يجمع حوله عددا من الأساقفة ووافقوه على عقيدته ، وقام الأساقفة بعقد مجمع أفسوس الذين أدانوا فيه آريوس بسبب بدعته وجرموه. وعندما واصل آريوس دعوته عقدوا مجمعا آخر في الإسكندرية في عام ٣١٨م تمت فيه ادانته,واتهامه بالهرطقة رغم ورعه.وقد أحس الإمبراطورقسطنطين الكبير خطورة آريوس على السلام ودعا إلى مجمع نيقية عام ٣٢٥م (المجمع

المسكوني الأول) الذي أدان تعاليم آريوس، وساد الاعتقاد بأن آريوس مات مسموما.

كان للبابا سلطة قوية إبان القرن الرابع الميلادي، إذ إنه بعد غزو البرابرة ضعفت سلطة الأباطرة، وتنامى مفهوم سلطة البابا حتى زعموا أن سلطة البابا امتداد للسلطة الإلهية، وظلت العلاقة بين الإمبراطور والبابا سجالا حتى اعتلى منصب البابوية البابا غريغوريوس السابع (١٠٦٣–١٠٨٥م) فوطد سلطته العليا على الملوك والأباطرة، وكان باستطاعته إقالتهم إذا خرجوا عن طوعه كما فعل مع الإمبراطور هنري الرابع (١٠٦٥–١١٠٥م) إذ قام البابا بعقد مجمع في الفاتيكان فأصدر قرار حرمان الإمبراطور، وبذلك تم حرمانه دينيا وعزله وتحرير رعاياه من قسم التبعية الذي أقسموه له. وصلت السلطة البابوية أوجها في عصر البابا بونيفاسيوس الثامن ١٢٩٤–١٣٠٣م، الذي قال (إنه يجب وضع سلطة الملوك والجنود المادية في خدمة الكنيسة والانصياع لإشارة الكاهن). وبعد عصر البابا بونيفاسيوس الثامن مرّت البابوية بمراحل عصيبة. فمن عام ١٣٠٩ إلى ١٣٧٧م اضطر الباباوات إلى الإقامة في المنفى في أفينيون بفرنسا بعيداً عن روما، مما أدى إلى الانشقاق الغربي الكبير (١٣٧٨–١٤١٧) فشهدت الكنيسة تنافساً داخلياً بين الكرادلة حول منصب البابوية، ولم يحسم إلا في مجمع كونستانس عام ١٤١٧م. وخرجت البابوية من الأزمة ضعيفة معنوياً، فقام كثير من المفكرين ينقصون من سلطتها فتهيأ الجو للثورة. وفي عام ١٦٤٨م عقد جميع الأطراف صلحاً سُمي بصلح وستفالية Westphalia ثبتت بموجبه مساواة البروتستانت والكاثوليك في الحقوق.

ويرى المؤرخ دولينجر أن كل العقائد الهرطقية التي ظهرت في القرون الوسطى بصورة ضمنية كان لها طابع ثوري، ومن أشهر الهرطقات الثورية كانت هرطقة الفودية والذي وزع مؤسسها أملاكها على الفقراء، وكان

يقرأ المواعظ باللهجة العامية على عكس ما كان يعمل القساوسة، ودعا إلى رفض دفع العشور، واعتبار أن الناس جميعا متساوون. و كان هذا النمط يشبه إلى حد كبير النموذج الذي تبناه توماس مونزر في القرن الخامس عشر الميلادي، واعتبر أن المسيح نبي فقط ويجب إلغاء الطبقات، وإلغاء حقوق الأساقفة والإقطاعيين، وقد اعتبر هرطقيا كبيرا. وشهدت هذه الفترة حملات التنصير بالقوة وتمت معاقبة كل من يرتد إلى الوثنية أُعدِم الكثيرون ممن رفضوا التعميد القسري.

وقد يتساءل الإنسان عن الحق الديني الذي استند عليه الأساقفة والرهبان والباباوات في قتل المهرطق وعلى أي قاعدة نصوصية ' فالإنجيل كما ذكرنا سابقا يدعو في كثير من فقراته للتسامح وقبول الآخر. مع ذلك نستطيع تحديد ثلاثة مصادر ربما كانت هي الأداة القمعية التي استندوا عليها:

١ – مطالبة العهد القديم اليهودي بتفحص الآخر تفحصا دقيقا فإذا وجد ثلاثة شهود يشهدون عليه بعبادة آلهة أخرى يتم إخراجه من المدينة ورجمه بالحجارة حتى الموت.

٢– زعموا أن المسيح دعا أن يكونوا كالغصن في كرمته والذي لا ينبت فيه يطرح في الخارج كالغصن الجاف فيجمع ويطرح في النار حتى يحترق. (رغم الخلاف في فهم هذا النص).

٣ – كانت الحضارة اليونانية– التي ورثتها المسيحية– تقوم على التحالف بين الآلهة والدولة، لذلك كان كل من يرفض عبادة الآلهة أو يخالف المعتقدات السائدة كمن خالف الدولة – ويعاقب بالموت.

ويبدو أن هذا هو الأساس النظري الذي ارتكزت عليه محاكم التفتيش.

الهرطقة ومحاكم التفتيش:

استقر الأمر للكنيسة من المهرطقين وهرطقاتهم وخاصة الآريوسية والنسطورية بعد القرن الخامس الميلادي حيث تم ترسيخ العقيدة المسيحية باستعمال القوة وإرهاب المعارضين وحرقهم وحرمانهم، ولكن في القرنين الرابع عشر والخامس عشر تحولت الهرطقة إلى عملية إصلاح شامل للسلك الكهنوتي والكنيسة وللديكتاتورية المطلقة التي كانت تمارسها الكنيسة، حين كانت سلطة البابا الروحية ترتفع فوق سلطة الملك الزمنية، وكان الملوك والأمراء الذين يتعرضون لسلطة الكنيسة غالبا ما يتعرضون للحرمان أو الإذلال من قبل البابا، وفي المقابل عومل الهراطقة بقسوة غير مشهودة وكان ملك وملكة اسبانيا يحضران بصفة منتظمة إعدام المهرطقين بالحرق تعبيرا عن تضامن السلطتين.

وفي عام ١١٨٤م أوجب البابا لوسيوس الثالث من خلال الدستور الذي صاغه وأسماه دستور فيرونا، أوجب على كل المطارنة أن يقوموا باختيار أفراد مشهود لهم بالنزاهة والشرف الرفيع لكشف كل الهراطقة وأن يقسموا على ذلك، أي على أنهم سوف يكشفون كل من يشك في هرطقته، وكانت دواوين استئصال الهرطقة التي أسسها الإخوة الدومنيكان باعتبارهم حراس الرب (في زعمهم) وهي بداية محاكم التفتيش – سيئة السمعة، هي تؤكد على التعصب الديني والتطرف الأشد في الأصولية المسيحية. وقد نظم البابا غريغوريوس التاسع في عام ١٢٣١م محاكم التفتيش لتشمل كل العالم المسيحي وقام هذا البابا بإصدار عدة قرارات كان من أهمها تكليف الآباء الدومينكان عام ١٢٣٤م بالخوض في مسألة الإيمان ومكافحة الهرطقة، وأخذوا هذه المسألة على عاتقهم بكل قسوة وأشاعوها وسط الجمهور، فخرج الجمهور في بوفيه واقتحموا أبواب سجن المدينة وأحرقوا الهراطقة الذين

كانوا بالسجن، وكان اللاهوتيون أنفسهم يرون في مثل هذه الأعمال (الحماس العادل لشعب الرب)، مع وقوف عدد مقدر ضد هذه الأعمال البربرية بحق الهراطقة لاقتناعهم بأن الإيمان يتم بالإقناع وليس الاضطهاد، إلا أن مثل هذه الأعمال كانت تتسع كل يوم. وكان الملوك أشد قسوة لإيمانهم التام بأنهم يعملون وفق المشيئة الإلهية حين يعاملون الهراطقة بهذه الشدة، وقد كان الكاثاريون (الأطهار) هم أكثر الهراطقة تعرضا للحرق، وكذلك المانويون لأنهم يعتقدون بأن حرقهم يعطي هؤلاء الهراطقة الشعور الأول بنيران الجحيم، وبعد تصديق البابا غريغوريوس التاسع في١٢٣١م على محاكم التفتيش وحرق الزنادقة والهراطقة أصبح هذا الأمر مقدساً، لأن البابا كان معصوما في نظر المسيحيين. وكان قضاة محاكم التفتيش يلجؤون أحيانا للوشاة أو الجيران للحصول على المعلومات ليدينوا الشخص بأنه لايؤمن بالعقائد المسيحية كما يجب. وقد شملت بعض حالات المحاكمات والحرق بعض الذين ماتوا وحكموا بعد موتهم واتهموا بالهرطقة فَنُبِشْت القبور وأحرقوا وكانت عقوبة محاكم التفتيش تشمل:

- تقريع المذنب علنا ومطالبته بدفع فدية مالية.
- السجن مدى الحياة.
- الحرق حيا.

وأحرقت قرى طائفة الكاثاريين بعد اتهامهم بالهرطقة والزندقة حرقا شمل عدة قرى، وكفروهم جميعا وأعلنوا عليهم حربا صليبية تشبه تلك الحملات الصليبية التي تم توجيهها إلى الشرق الإسلامي، وهذا يشير إلى أن الحروب الصليبية كانت في بدايتها داخليا ثم انطلقت إلى الخارج.

ويورد بروفيسور أدوارد يورمان أن متعصب كاثوليكي يدعى روبير لوبوغز قام بتفتيش كل المدن والأرياف بجنوب فرنسا بين عام ١٢٥٠–١٢٥٧م

بحثا عن الزنادقة والكفار، وقام بحرق٢١ شخصا، وسجن حوالي ٢٤٠ شخصا مدى الحياة، وحكم على قرية كاملة بالمحرقة لاتهامها بإخفاء أحد الزنادقة الكبار، ويرى البروفيسور أدوارد أن أسوأ محاكم التفتيش كانت في أسبانيا الكاثوليكية المتعصبة في عام ١٤٨٠م على يد الملكة إيزابيلا وزوجها فرناندو الثاني، فقد استهدفت المحاكم في بداياتها معتنقي المسيحية الجدد من المسلمين و اليهود لمعرفة ما إذا كانوا قد اعتنقوا المسيحية خوفا أم إيمانا، وكان رئيس محاكم التفتيش هو الأصولي توماس نوركمادا وظل في هذا المنصب حتى عام ١٤٩٨م تم فيها حرق عشرة آلاف شخص بالنار في طليطلة وحدها، وأمر بذبح ستة آلاف، وتعذيب خمسة وستين ألفا في السجون حتى الموت، وكذلك شنق ١٢٣٠٠ شخص لاتهامهم بالزندقة أو الخروج عن الاستقامة المسيحية وهذا كله حدث في منطقة واحدة.

ولم تكتف محاكم التفتيش بقمع هذه المجموعات بل شملت المفكرين من كوبر نيكوس إلى جاليلو ثم ديكارت وظل الفلاسفة عرضة لها في أسبانيا والبرتغال حتى القرن التاسع عشر.

كان مجمع لاتيران الثاني في عام ١١٣٩م أول من بلور تشريعات بابوية ضد الزندقة وكان تصنيفها ضد فئة الألبيين والتي اعتبرت خارجة على الإجماع المسيحي وأنها فئة مهرطقة ونشبت عليها حربٌ سميت أيضا حربا صليبية.اتسمت حرب الاكليروس عليهم بالعنف الشديد والوحشية منقطعة النظير، ولذا كلف البابا – وكيل المسيح المحب – بالأمر بهذا، لدرجة أن الباقي من الشعب هرب إلى الجبال وإلى البلاد المجاورة دون معونة أو زاد، والمحاربون خلفهم يعملون بالسلب والنهب، وعندما وقعت في أيديهم معاقل الألبيين لم يرحموا امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً، وإنما أعملوا فيهم الإحراق والقتل والتنكيل، فدمروا المدن وأحرقوا البيوت. وسميت الحرب ضد الألبيين والكاثاريين جميعها حروبا صليبية.

وقد سار البابا والملك على هذا المنوال في الاتفاق وكانت هناك قوانين تسمى قوانين مؤسسة الملك القديس لويس وتنص على أنه يجب على السلطة الزمنية أن تساعد الكنيسة المقدسة. ففي حالات الهرطقة عندما تحكم الكنيسة على أحدهم بأنه مهرطق عليها أن تتركه للعدالة الزمنية لأنه لا ينبغي للعدالة الروحية تنفيذ حكم الإعدام بأحد من الناس. كان المحقق في محاكم التفتيش يصدر مرسوم إيمان، يكون بموجب هذا المرسوم على المؤمن أن يقوم بالإبلاغ عن أي مهرطق ويعطى مهلة بين ١٥ إلى ٣٠ يوما للمهرطق للرجوع عن هرطقته وإذا رفض يتم إصدار الحكم من خلال جمعية تسمى الموعظة العامة. أما إذا أعلن المهرطق توبته فيتوجب عليه تنفيذ بعض الصلوات والصيام والهبات والحج إلى روما ويقوم الكهنة بجلده، وأن يحمل لمدة من الزمن صليبا أحمر أو أصفر مما يعرضه للشتائم من العامة.

وقد شمل مصطلح استئصال الهرطقة في ذلك الوقت عدة مجموعات:

١ – كان أهمها تلك التي تنادي برؤى مخالفة للعقيدة الرسمية للكنيسة والتي تجعلها تحافظ على سلطتها.

٢ – الوثنيون والمسلمون في الأندلس تم تعميدهم قسرا وتنصيرهم بالقوة بمرسوم ملكي.

٣ – الفلاسفة – ولكن اضطهاد الفلاسفة بدأ في القرن الخامس الميلادي حين أصدر الإمبراطور قسطنطين أمراً بحرق كتب بعض الفلاسفة، من بينهم الفيلسوف قرقوريوس، لأن ما كتبه يغضب الرب ويؤذي نفوس المؤمنين مما جعل كلمة الفلسفة مرادفة لكلمة الكفر، كما كانت كلمة يوناني تعني وثنياً، وتم إغلاق مدرسة الفلاسفة بمدينة أثينا في القرن الخامس عشر حسب ما أورده طرابيش ومطاردة أساتذة الجامعات وقتل بعضهم.

الهرطقة والإصلاح الديني:

كل هذه العوامل الدينية والسياسية مهدت لولادة حركة الإصلاح الديني في نهاية العصور الوسطى والتي دعت إلي بناء كنائس مستقلة عن الكنيسة الكاثوليكية في روما والانفصال عن إمبراطورية العصور الوسطي. وقد أججت حركة الإصلاح الديني نار الحروب في أوروبا ، ولكن في النهاية نتج عن ذلك الإصلاح حركات دينية تعترف بحرية العبادة وبحق الفرد في تفسير الكتاب المقدس وفي الوقت نفسه أدى كل ذلك لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية نفسها.

إن من أكثر النماذج قوة في الانشقاق والخروج عن الكنيسة الكاثوليكية المهرطق جون ويكلف (١٣٣٠–١٣٨٤) فقد تمكن من التبشير بهرطقته علنا وأدت آراؤه الهرطقية إلى نشوء حركتين هرطقيتين [٤] هي جماعة اللولاردين وأتباع هوس ، وكان اعتراض ويكلف الرئيس على تمتع البابوات في الكنيسة الكاثوليكية بالثراء العريض، وقد انتقد البابا في ثماني عشرة فقرة فأدانه البابا رسمياً ، وأصر ويكلف على ضرورة أن يقوم الملك بإجراء الإصلاحات في الكنيسة.وقد هاجم بشدة سلطة الكنيسة ورفضها خلافا للمهرطقين الآخرين الذين كانوا يكتفون بانتقاد الكنيسة. ومن الأسباب الهامة التي اتهم ويكلف بسببها بالهرطقة عدم أحقية الكنيسة في ممارسة أي سلطان على الناس؛ لأن كنيسة الله الأصلية ليست هي التي يرأسها البابا ، ولكن من يقع اختيار الله عليهم، وعليه يحق لهؤلاء الأفراد أداء طقوس التناول بدلا عن الكهنة ، ودعا ويكلف إلى الإيمان القائم على الإخلاص الذكي لا على الممارسات الشكلية. قام ويكلف بترجمة الإنجيل [٤] إلى اللغة الانجليزية ليفهمه عامة الناس بعد أن كان فهمه قاصراً على الرهبان وكان ويكلف يرمي إلى جعل المعرفة بالإنجيل ملكا لكل فرد وأن كل فرد

يمكنه أن يتصل مباشرة مع الله من دون وساطة الكهنة، ولهذا تمت ترجمة الكتاب المقدس.وهذه الترجمة للكتاب المقدس ساعدت الكثير من العوام على الانضمام لحركة اللولارديين التي كان هدفها الأول التركيز على مفاسد الكنيسة الكاثوليكية وسلب حق طرد المسيحيين الذي يتمتع به البابا؛ لأن هذا الحق هو ملك لله وحده والذي يحدث بعد البعث مما أثأر رئيس الأساقفة فطالب بإصدار إدانة شاملة لتعاليم ويكلف وقمع حركة اللولارديين واتهامها بالهرطقة، وأمر رئيس الأساقفة بحرمان عدد من قادة الحركة ومصادرة كتبهم التي مصدرها ويكلف وأمر رئيس الأساقفة بإجراء تحقيق في جامعة أكسفورد وتطهيرها من الفكر الهرطقي الذي تبناه ويكلف ، والجدير بالذكر أن جامعة اكسفورد كانت تخضع لرئيس أساقفة كنتربري ، وفي عام ١٣٩٥م تم استثناؤها من هذه السلطة لكن سرعان ما رفض الملك ذلك وأعادهم إلى سلطة الكنيسة. ومع المساعدة الأكاديمية التي نالها من جامعة أكسفورد في البداية إلا أنها سرعان ما أدانته بسبب قوله بعدم تحول الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه بواسطة حلول روح القدس/ وهددوه بالطرد والحرمان، وقام أسقف كنتربري بمنعهم من الدعوة والتنصير وتم إحراق بعض مؤلفاته بواسطة بابا روما وبعد قرابة خمسة وعشرين عاما أعلنت الكنيسة الكاثوليكية أن جون ويكلف مهرطق من الدرجة الأولى. وفي عام ١٤٢٨م أمر مجمع آخر بإخراج جثته من القبر وإلقائها بعد حرقها في إحدى الترع المائية.

ونشأت في تلك الفترة فكرة الوعظ دون إذن وكان في تلك العظات يتم تدريس تعاليم ويكلف وقراءة مؤلفاته، ولكن الكنيسة تصدت لهؤلاء ومنعتهم كما منعت أيضا ترجمة الإنجيل دون إذن منها، والأسوأ من ذلك الأوامر التي أمر بها أحد الأساقفة والتي ترى ضرورة إجراء اختبارات شهرية

في الجامعة تشمل جميع الكليات وعمداءها والطلاب بقاعات الدرس بهدف الاكتشاف المبكر لظاهرة الهرطقة ، وكونت لجنة من اثني عشر عضوا لفحص مؤلفات ويكلف وتم فحصها وإرسال تقرير إلى رئيس الأساقفة وأشار التقرير إلى وجود أكثر من مائتي فكرة هرطقية، وأرسل هذا التقرير إلى البابا الذي أصدر قراراً بحظر كتابات ويكلف ، ويعتقد بعض الباحثين أن مؤلفات ويكلف تعرضت للحرق في أكسفورد.

ولكن كل هذا التعنت والكبت الفكري لم يمنع ظهور مهرطقين آخرين فجاء بيرفي ثم تلاه ويليام تنويل الذي التحق بمارتن لوثر في ألمانيا ، وقد اتهم تنويل بالخيانة وقام الملك هنري الثامن بسجنه في القلعة التي أحرقت في ١٥٣٦م.ولكن جهود وكلف وتنويل قادت إلى الإصلاح الديني في انجلترا وصار الإنجيل متاحا باللغة الانجليزية وعلى اعتبار أن الجميع يقف أمام الرب دون الحاجة إلى رجال دين. ولكن عند اعتلاء الملكة ماري عرش إنجلترا والتي كانت كاثوليكية متعصبة قامت باعتقال الكثير وإحراق حوالي ثلاثمائة ممن أسمتهم بالهراطقة وقادتهم، فكان إعدام وليم سوتري حرقا ١٤٠١م لأنه عارض عبادة الصليب وكان هو من ضمن الذين علقوا ورقة في كنيسة القديس بولس تتضمن عشرة نقاط من أهمها الإشارة إلى ثروات رجال الكنيسة الهائلة، وعلى إنكار أن الخبز والخمر هما جسد ودم المسيح ، وإنكار عبادة الصور والتماثيل وعدم أهمية الاعتراف الشفوي وتضمنت مناشدة للملك بإصلاح الكنيسة، وضاعف هذا من الهجمة على اللولاردية وكان إعدام الأكاديمي وليم تيلر حرقا.[٤]

نلاحظ هنا أن ويكلف وحركته اللولاردية لم تكن في الأساس هرطقة أو كفرا، إنما تم استغلال هذه الكلمات من جانب الكنيسة إذ إن الحركة هدفت في الأساس إلى إصلاح ما بقي من الكنيسة والحفاظ عليها من الفساد

الروحي. ولم يرق لرجال الكنيسة هذا العمل الذي كان يجردهم من ثرواتهم وسلطانهم، فكانت مطالبتهم المتكررة للملوك بمعاقبة الهراطقة إلى أن استجاب لهم الملك هنري الرابع في حوالي ١٤٠١م، وسنّ قانونا للهرطقة يعاقب كل مهرطق أو حتى من يحتفظ بكتابات مهرطق أو من يرفض نبذ الهرطقة وتقوم الكنيسة بتسليم الهراطقة إلى السلطة التنفيذية ليتم حرقهم، وبذلك تبدل الحال وصارت الدولة هي التي تقوم باضطهاد الهراطقة وإحراقهم.

كانت المبادئ التي اعتمدها مارتن لوثر لإصلاح الكنيسة تتضمن إلغاء غفران القسيس للذنوب والذي يترتب عليه إلغاء صكوك الغفران لتكسب الكنيسة من الشعب ثم إنه طالب أيضا بإلغاء القداس الإلهي وغفران القسيس لذنوب الموتى واتفق مع ويكلف في إلغاء تحويل القسيس للخبز والخمر إلى دم وجسد المسيح، ثم إنه طالب بزواج الكهنة والقسس من أجل إيقاف الدعارة التي كانت تنتشر في الأديرة والكنائس. وهاجم لوثر مذهب الكنيسة المتبع فأصدر البابا لاون العاشر مرسوما بهرطقة لوثر ويحتوي على ٤١ قضية ثم انعقد مجمع فورمس في عام ١٥٢١م ونتيجة لذلك أحرقت كتبه ونفي. ولكن في عام ١٥٣٠م آتت حركت لوثر أكلها واعترفت بها بعض الكنائس الألمانية والإنجليزية.

وكان لوثر يعتبر أن البابا هو المسيح الدجال وأن واجبه هو الإطاحة به وأن الكنيسة أصبحت بيت دعارة، وقاد كل هذا إلى حرب الثلاثين عاما بين الكاثوليك والبروتستانت ١٦١٨–١٦٤٨م إلى أن تم صلح وستفاليا حيث اعترفت الكنيسة الكاثوليكية بالبروتستانت ونفت عنهم تهمة الهرطقة وساوتهم في الحقوق مع الكاثوليك.

لقد رفضت حركات البروتستانت البابوية والأسقفية بمعناها التقليدي وحاربت كل المفاسد التي كانت ترى البابوية ترزح تحتها ولكن الانجليز

(البروتستانت) حافظوا على الترتيب الأسقفي ولكنهم رفضوا هيمنة البابا على جميع الكنائس، مثلهم مثل الآرثوذوكس الذين آمنوا بانحراف البابا عن الإيمان العقدي السائد في الإنجيل.

بعد ذلك أحست الكنيسة الكاثوليكية بضرورة الإصلاح وأخذ انتقادات البروتستانت بجدية فنظمت الكنيسة الكاثوليكية في مجمع ترانت (١٥٣٥–١٥٦٣) ووُجدت بعض الإدارات لمساعدة البابا والتقليل من سلطة البابا المطلقة.[٣]

من هنا يتضح لنا أن تاريخ نشأة المسيحية وتوطيد سلطتها كان عملا عنيفا ودمويا وذلك لعدة أسباب نلخصها في الآتي:

١- التركيبة الدينية لرجال الكنيسة من حيث احتكارهم للمعرفة فقط.

٢- المواجهة الحادة التي واجهتها المسيحية من اليهود المتزمتين والوثنيين والفلاسفة الإغريق والمنطق اليوناني.

٣- رفض قبول الآخرين – لزعمهم أن سيدنا عيسى عليه السلام هو المخلص وهو الذي بيده خلاص الكون وعليه لا أحد قادر على حل مشكلة الإنسان دون الإيمان به.

٤- الرغبة الجامحة للبابا وكبار الأساقفة بالسلطة والثروة والصراع حول كرسي البابوية.

كل هذه العوامل أدت بالكنيسة إلى إرهاب وقمع خصومها واتهامهم بالهرطقة وحرقهم وذبحهم وأدت إلى نشوء حركة حراس الرب التي قادت إلى محاكم التفتيش وقادت أيضا إلى الحروب الصليبية في داخل المسيحية وفي خارجها.

الإصلاح الديني وأثره:

آثاره على الكنيسة الكاثوليكية:

بعد عملية الانشقاق الكبير داخل البيت المسيحي وبروز التيار البروتستانتي عبر كفاح طويل ومعاناة قاسية من قتل وحرق – عذب فيها الكثير لاتهامهم بالهرطقة – بعد هذا الانقسام كان لابد للكنيسة الكاثوليكية – الجامعة – أن تفكر في رؤيتها للهرطقة والمهرطقين ومحاولة إصلاح داخلية، وعليه كان نجاح هؤلاء المنشقين (المهرطقين في نظر الكنيسة الكاثوليكية) كان درسا قاسيا للكنيسة الكاثوليكية الرومانية، فقد قامت الكنيسة الرومانية بتحسين ممارسات كبار الأساقفة وبدأ المخلصون للحبر الأعظم في التوحد معا والالتفاف حوله مما أعطى الكنيسة الكاثوليكية المزيد من الوحدة وعالجت الكنيسة الكاثوليكية الهرطقات التي تلت الإصلاح الديني بكثير من الحكمة والصبر، وكانت من أهم تلك الهرطقات أو الانشقاقات:

- البدعة الصوفية.
- البدعة الاشراقية.
- البدعة الجانستية.
- البدعة التجديدية.

فالبدعة الصوفية تدعو إلى التحرر من سلطة الكنيسة والاندفاع المباشر نحو السماء مما قد يتيح رؤية معاكسة للعقيدة المسيحية ولكنهم مع ذلك لم يتعرضوا للإزعاج من الكنيسة في ما عدا الناسك الألماني بان تولر والمعلم يوهانس إيكارت مع تلقيه تعليماً كهنوتياً متميزاً إلا أنه اتهم بالهرطقة وأدين إلا أن الأمر بهرطقته وإدانته لم يصدر إلا بعد وفاته بعامين وذلك لقوله بوحدة الوجود.

ابتدع وايشويت بدعة الاشراقيين وسُجِنَ العديد من مؤسسي الحركة الإشراقية في ألمانيا على أنها بدعة وهرطقة. وكانت بدع أو هرطقات مولنيونس الذي نادى بالعيش في استسلام كامل للمشيئة الإلهية دون بذل جهد للقيام بأعمال الفضيلة أو الرزيلة، ودعا إلى تجاهل كل الوسائط الكهنوتية والطقوس الكنسية، وتمَ سجنه وعُذب إلى أن أنكر بعض آرائه إلا أنه لم يخرج من السجن إلى أن توفي فيه. وأيضا عُذب وسجن ماري بوفيه وزوجها غويون لنشرهما أفكاراً أثارت هلع الكنيسة، وقد دعيت البدع الجانستية كلها على أنها هرطقة وأدان البابا اينوسان العاشر كل ما قالته الجانسيتية على أنه هرطقة، واتخذ لويس الرابع عشر موقفا واضحا منها وأصدر أمرا بمنع جميع الأساقفة من تأييد عقيدة الجانستيين المدانة سواء بالمواعظ أو الكتابة عنها.

التجديدية:

إن التطورات المتتالية التي حدثت عند المهرطقين تمحورت في العصر الوسيط لروح نقدية تسببت في توسيع الفكر الديني، وكانت كلها مشبعة بالدين والرؤى الدينية، وتولدت عنها الكنيسة البروتستانتية التي – كما رأينا – لم تكن في بدايتها أقل تسلطاً من تلك التي سبقتها، ولكن بحلول القرن الثامن عشر كان هناك استغلال تام للتسامح الديني الذي نشأ بعد تلك الحركات النقدية، غير أن الاستغلال للتسامح اتخذ في بدايته طابعا ثقافيا دينيا عندما هاجم كل من فولتير و وديكارت وسبينوزا وديدرو وجان جاك روسو ومؤرخو بابل هاجموا المسيحية في حد ذاتها ، ومع أن فولتير تلقى تعليمه في الكنيسة اليسوعية إلا أنه هاجم المسيحية بشدة وخاصة سلطة البابا والإقطاع ورفض الاعتراف بسلطة الكنيسة وأدانته الكنيسة واتهمته بالإلحاد وإنكار الأعراف والتقاليد المسيحية، ونادى بأن يكون محور الدين الشفقة

والرحمة، وقد دافع بشدة عن التسامح الموجود في الدين الإسلامي، وبشريعة سيدنا محمد ﷺ. وتطور هذا النقد ليصبح نقدا علميا في القرن التاسع عشر، وشكل النقد العلمي تهديدا قويا للكنيسة فاق ذلك الذي أحدثته الهرطقة والمهرطقون مما اضطر البابا بيوس التاسع ١٨٦٤م. إلى إصدار فتوى تكفر الحرية وحرية الوعي والاعتقاد الديني فأدان بشدة فصل الدولة عن الكنيسة واعتبرها خروجا عن الأصول المسيحية، ووقف معه المسيحيون المتزمتون واتخذ البابا مواقف شديدة الانغلاق حيال أي تجديد. ولكن الأصوات لم تخفت حتى داخل الكنيسة نفسها إذ بدأ أن هنالك نقدا لشروحات العهد القديم وأصدر البابا ليون الثالث عشر رسالة بابوية يؤكد فيها أهمية ما توصل إليه مجمع ترانت من صيانة للنصوص المقدسة.

لائحة الأفكار المحظورة:

أرسل البابا بيا التاسع رسالة بابوية تضمنت ثمانين فكرة اعتبرها البابا خطيئة وضلالاً وعنونت الرسالة باسم كوانتا كورا– وأدى نشر هذه الرسالة إلى نقد لاذع لسلطة الكنسية الكاثوليكية ولسلطة البابا نفسه، هذا من جانب ومن جانب آخر شجعت هذه الرسالة الحركات الدينية المستنيرة وأعطتها وقودا جديدا وكان أشهر من انتقدها الكاتب جوزيف لوكير في العام ١٩٦٤م في كلية الدراسات المسيحية حيث أورد (لم يكن لأي وثيقة بابوية صدى مثل الذي كان للسيلابوس "اللائحة". فهذه المدونة للثمانين مقترحاً صدرت ملحقاً للرسالة الدائرية البابوية كوانتا كورا (بأي قدر) من طرف البابا بيا التاسع بتاريخ ٨ ديسمبر ١٨٦٤م، وبعد صدوره مباشراً أثار هذا السيلابوس في العالم بأسره، وفي كافة الأوساط – حتى الأواسط غير المؤمنة منها – ردود فعل قوية، وانتقادات رائعة، مازال صداها ممتدا إلى اليوم. فهذا اللفظ اللاتيني البسيط الذي يعني "فهرست" قد أضحى له الوقع السحري،

ومازال إلى اليوم يغذي فكر وفلسفة نقد السلطة الكنسية بين الناس حتى المسيحيين أنفسهم.

وقام البابا بيوس العاشر بتحريم مؤلفات الكاتب لوازي وطلب من مكتب القديسين الذي هو في الأصل تغيير لاسم محكمة التفتيش –الذي مازال موجودا– طلب منه مراجعة كتب لوازي في ١٩٠٧م فقام المكتب بإدانة ٦٥ بندا فيها، وفي الرسالة البابوية pascendi تمت الإشارة إلى التجديدية بأنها ملتقى كل الهرطقات وتقود إلى القضاء على كل دين، وتم إلقاء الجرم الأكبر على الكاتب لوازي واتهامه بالتجديدية. ودافع بعض الكهنة الذين كانوا يصفون أنفسهم بالكاثوليك التامين عن مناهضة التجديدية بحماس ولكن تم منع منشوراتهم في زمن البابا بيوس العاشر وبلانو الخامس عشر وأدان البابا غريغوريوس السادس العشر كتاب أصول العقيدة المسيحية– الكاثوليكية الذي صدر في ١٨٣٤م عن رجل الدين جورج هرمس وتمت إدانته بعد وفاته وأصدر البابا منشورا أكد فيه أن هورمس قد ضل السبيل.

في عام ١٩١٩م طالب اتحاد الاكليروس الكاثوليكي في تشيكوسلوفاكيا من الفاتيكان بالسماح لهم بالاحتفال باللغة التشيكية في القداس وبإلغاء عزوبية الرهبان وخلق بطريركية مستقلة ولكن روما اعتبرت كل هذه هرطقة وتتعارض مع نص الرسالة البابوية pasendi بخصوص التجديدية.

وكان لاتفاقية لاتران في عام ١٩٢٩م أثرها في تسوية الخلاف بين البابا و الحكومة الإيطالية التي كانت قد استولت عليها إيطالية، وتم في هذه الاتفاقية تخصيص منطقة الفاتيكان مقرا للبابوية. وتراجعت سلطة البابا الزمنية إلا أن هذا التراجع ساعد في تقوية سلطته الروحية وأصبح صاحب سلطه عليا في الكنيسة. ولكن في بداية التسعينات بدأت حركة للتصالح

الديني وكان مجمع الفاتيكان ١٩٦٢–١٩٦٤م الذي دعا إلى توحيد المسيحية في كل أنحاء العالم ، وأنشئ مجلس الكنائس العالمي ومجلس كنائس الشرق الأوسط لتحقيق هذا الهدف. وبعد ذلك قللت الكنيسة الكاثوليكية من استعمال كلمة مهرطق أو هرطقة، وانفتحت على كل التطورات السياسية والفكرية والاجتماعية التي سادت القرن التاسع عشر، وقامت الكاثوليكية بالحوار مع الطوائف المسيحية الأخرى وكذلك مع الأديان الأخرى التي كانت إلى وقت قريب تعتبرها هرطقات يستحق أصحابها الحرق، وبدأ الحديث عن التسامح والتآخي بين المسيحيين وبقية الأديان خاصة في عهد البابا يوحنا بولس الثاني ١٩٧٨– ٢٠٠٩م الذي أعاد قبل سنوات فقط النظر بالنتائج التي توصّل إليها في محاكمة جاليليو وطلب من اليهود «الغفران» لما لاقوه من اضطهاد خلال قرون من الزمن.

البروتستانت ومحاربة المنشقين:

مع المعاملة القاسية التي واجهها المصلحون الأوائل الذين أسسوا المذهب البروتستانتي من قبل الكنيسة الكاثوليكية واتهام الكنيسة لهم بالهرطقة إلا أن الكنيسة البروتستانتية لم تسلم من البدع والهراطقة الذين انشقوا عنها. ففي أسبانيا لم تجد البروتستانتية مجالا لأن طرد كل عنصر دخيل على الكاثوليكية كان عنيفا للغاية وقضت عليهم محاكم التفتيش مع غيرهم، وفي فرنسا مع الاضطهادات صمدت البروتستانتية، ولكن هل كان يمكن للبروتستانت أن يعطوا مسألة الرأي الفردي الحرية.

قد قاد تومس مونزر المولود في عام ١٤٩٨م والذي كان أستاذا في علم اللاهوت قاد ثورة الفلاحين التي كانت اجتماعية، إلا أن بعض مطالبها دينية إذ طالبت بانتخاب أسقف الرعية وعزله وطالبت بتعديل الطقوس الدينية وسلطة الأساقفة سواء الكاثوليكية والبروتستانتية. مع أن دعوة لوثر كانت

ضد البابوات والأساقفة والكرادلة ذوي الثروات العالية إلا أنه وقف معارضاً لثورة الفلاحين وأمر بقتلهم وشبههم بالشياطين مع رفضه التام إعدام الهراطقة إلا أنه لم يمانع من إعدام حركة مجددي العماد الذين رفضوا طقوس الكنائس وسلطتها العقدية، واتهموا بالهرطقة من قبل البروتستانت والكاثوليك وحاول يوحنا اللايدني التبشير بمجتمع تسود فيه المساواة الإنجيلية، ومعه سافونا رولا ولكن تمتقضى عليهم لاعتبارهم هراطقة ، وأمر كالفن الذي كان إصلاحيا متميزا ومتسامحا أمر بحرق ميشال سيرفيه حيا لإنكاره مبدأ الثالوث الإيماني وأثأر ذلك أيضا الأوساط البروتستانتية فأيدوا الحكم بإحراقه حيا. أما نيكولا انطوان الذي كان كاهنا فقد جرت إدانته من القساوسة وأساتذة اللاهوت البروتستانت بالهرطقة وإحراقه حياً[٤]. ولكن بعد ذلك توقفت هذه الممارسات في الكنيسة البروتستانتية وكان العقاب ينال بعض القسس الذين يتهمون بالانحراف العقدي.

بعد انشقاق الكنيسة الإنجليزية في زمن الملك هنري الثامن جمع أسقف كنتربري توقيعات رجال الأكليروس على بيان يؤكد أنه لا يوجد في الكتاب المقدس ما يفيد أن الحبر الأعظم تلقى من الرب سلطانا أكثر من الذي يتلقاه أي أسقف آخر، ولكن مع ذلك كتب الملك هنري بحثاً ضد اللوثرية إلا أنه أمر بحرق هراطقة كاثوليك وهراطقة بروتستانت بنفس الدرجة. وأول انقسام مهم أصاب الكنيسة الإنجيلية هو الكالفنية أو البرسبيتاريين وتعرضوا لاضطهاد شديد اضطرهم إلى الهجرة إلى أمريكا. لكنهم حصلوا على حق العبادة عام ١٦٨٩م، وتم أيضا اضطهاد جماعة الابرشانيين في انجلترا فاضطرهم ذلك للهجرة إلى أمريكا حيث أسهموا في صنع البروتستانتية الأمريكية ولكن مع الإصلاح الديني في انجلترا بقي الاكليروس غير متسامح.

ومن أشهر الجماعات الهرطقية بعد ذلك كانت جماعة الكويكرز التي أسسها فوكس عام ١٦٥٠م وأودع السجن بسبب قوله إن قيامة المسيح هي قيامة روحية فقط، وقد حكم عليه البرلمان بالتعذيب وثقب لسانه بالحديد المحمَى ونقش حرف B على جبينه بالنار، ثم بعد ذلك اقتيد على حصان وهو مقلوب الرأس وطافوا به من لندن إلى السجن حيث توفي بعد عام. واضطُهد الكويكرز وعذبوا حتى عام ١٦٨٩م حيث صدر قرار العفو ومساواتهم دينيا ومدنيا. وانتقل بعضهم للعيش في ولاية بنسلفانيا في أمريكا.

ثم كانت جماعة الموحدين في انجلترا الذين كانوا ينكرون الثالوث، وأدانتهم الكنيسة بقسوة وأصدر البرلمان قرارا بإعدام الموحدين فهاجروا بعد ذلك إلى بوسطن.

أمريكا والهرطقة:

كان الرواد الأوائل الذين وصلوا إلى أمريكا عام ١٦٢٠م من طائفة الابرشانيين أوالبرسبيتاريين وبعض الطوائف الأخرى التي هربت من الاضطهاد الديني، وذلك لتأسيس قاعدة دينية جديدة في المستعمرات الانجليزية، ولكن ما لبثت تلك الرؤى الإصلاحية التي آمن بها المهاجرون وهاجروا بسببها هربا من الاضطهاد أن واجهت واقع الحياة والثقافة الجديدة، حيث وصلت الطوائف المسيحية إلى ١٤٣ طائفة في عام ١٩٣٦م يتوزع عليها البروتستانت الأمريكيون. وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وصل إلى أمريكا مجموعة كبيرة من الجماعات الدينية التي تم اضطهادها في أوربا، فقد هاجر من إنجلترا في البداية ابرشانينون أو برسبتاريون أو رسوليون أو مثيوديون أو كويكرز، ومن ألمانيا وهولندا لوثريون أو معماديون، وهكذا، وظلت كل هذه الجماعات كجماعة مبتدعة في أقلية صغيرة بدأت تكسب أتباعا لها من الأمريكيين، ولكن نشأت بعد ذلك في أمريكا ثلاث بدع رئيسية شملت المورمونيين

والسبتيين والعلمويين.

فقد كانت جماعة المورمونيين تؤمن بأن قبائل إسرائيل العشر الضائعة سوف تتجمع في أمريكا الشمالية، ويدعى مؤسس هذه الجماعة الهرطقية جوزيف سميت، وقد جمع في عام ١٨٣٤م عددا كبيرا حول هذه الهرطقة وسموا أنفسهم قديسي الأيام الأخيرة، وقد قوبلوا بالرفض من بقية المستوطنين مما حدا بهم إلى النزوح إلى ولاية الينوي، وهناك نادى سمث بتعدد الزوجات واعتقلته السلطات، إلا أن الجماهير الفاضلة اتهمته بالهرطقة وهاجمت السجن وقتلته هو وشقيقه، وتولى أمر الجماعة بعدهما بريغام يانغ الذي قام بنقل بدعته إلى منطقة سلت ليك سيتي وأسس شبه دولة دينية تم القضاء عليها في ١٨٥٨م، وهم يرون أن الوحي مستمر ويؤمنون بالعماد الذي يمكن تكراره لغسل الخطيئة ويؤمنون بتعدد الزوجات للأغنياء وقد ضيقت عليهم السلطات في مسألة تعدد الزوجات.

ثم كانت بدعة السبتيينAdventist التي كانت تؤمن بعودة المسيح في أكتوبر من عام ١٨٤٤م وعندما لم يأت المسيح لم تخمد البدعة إلا أنها أصيبت بخيبة أمل ولم يتعرضوا لأي اضطهاد.

وأسست ماري بايكر ايدي في عام ١٨٢١م بدعة سميت العلم المسيحي، وادعت أنها تستطيع شفاء المرضى، وأصدرت كتاب العلم والصحة الذي يعتبره العلميون الشرح المعتمد للكتاب المقدس، ونمت حركتها وازدهرت إلا أنها اعتبرت مهرطقة؛ لأن من يريد الانضمام إليها عليه أن يترك عقيدته القديمة وأن يوافق على رسالة جديدة مستمدة من الإنجيل، وانتشرت هذه البدعة في أمريكا كما انتشرت في أوروبا أيضا.

وفي الستينات من القرن العشرين نذر الدكتور مون جزءا من حياته لتوحيد المسيحية العالمية، وقام بإنشاء جمعية روح القدس لتوحيد المسيحية

العالمية، وكانت الرؤى التي تبناها تؤكد أن المسيح لم يأت ليموت في الصليب وأن الخلاص الذي تحقق لم يكن خلاصا كاملا وعليه دعا قادة الكنائس إلى إنزال الصليب من على كنائسهم باعتبار أن الصليب ليس علامة نصر وأن الخلاص الحقيقي يأتي بالعمل الجاد لتحرير النفس من سلطة الشر. قاومت الكنائس جميعها تعاليم الدكتور مون وكالت له الاتهامات وتم إيداعه السجن عدة مرات.

خلاصـــة

لقد نزل على سيدنا عيسى عليه السلام الإنجيل متضمناً لأسس من التسامح والمحبة والرحمة والرضا المتبادل لدرجة أن اليهود اتهموه بأنه جاء لنقض قوانين موسى، فقال لهم إنه جاء ليكمل هذه القوانين، واتهموه بناء على ذلك بالهرطقة. وحاول أتباعه تلمس الطريق نفسه والدعوة إلى التسامح والمحبة، ومع النجاح الذي حققوه في البداية سرعان ما تصدع كل هذا البنيان النظري وبدأت المسيحية في اضطهاد وإذلال لكل منكر لها، ولكل من يريد تقويم اعوجاجها واتهمته بالهرطقة، وذلك في الغالب يتم بالتحالف مع السلطة الزمنية. إن انعدام التسامح وسط المسيحية يقوم على أسس وركائز أساسية منها:

- الاعتماد التام على انتظار عودة المسيح التي وعد بها في زعمهم، وخاب أملهم في ذلك.
- الكبرياء والرغبة والسيطرة والغرور لدي رؤساء الكنيسة أو الجماعة مقارنة بما لدى المؤمنين المسيحيين البسطاء.
- استخدام الإكراه والعنف والقسوة أمر غير مستهجن للغاية لمن يظن أنه يعرف الحقيقة وحده، وأن أي رأي آخر هو الخطأ والضلال.

ويقدم لنا هذا السرد التاريخي دحضاً لمقولة التسامح والمحبة التي يقال إن المسيحية انتشرت بها، ويؤكد مبدأ العنف والإكراه الذي لازم تاريخ المسيحية منذ اعتراف الإمبراطور قسطنطين الكبير بها، إلى القرن التاسع عشر، حين أجبرت حركات حقوق الإنسان والمساواة – الأصولية المسيحية على التراجع و السماح للرأي الآخر.

إن البحث المحموم عن الحقيقة كان في غالبيته السمة الغالبة لكل ما ادعت الكنيسة أنه هرطقة، وهذا البحث قد يضل الطريق أحيانا ولكنه

يبقى في إطار أخلاقي بحثي توجب معاملته بالحكمة لأنه متجرد من المصلحة، ولكن بالنسبة لرجال الكنيسة كان هذا البحث عن الحقيقة يشكل خطرا داهما على سلطتهم الروحية التي تلاقحت مع السلطة الزمنية.

إن هرطقات القرون الوسطى التي تم قمعها بقسوة متناهية نتج عنها مع كل شيء حرية الرأي واحترام النزعة الفردية. لقد كانت ديكتاتورية الكنيسة والسلطة أمام خيارين: إما السلطة وإما الحرية، أو بمعنى آخر الالتزام بسلوك طريق مرسوم سلفا أو إمكانية اختيار المرء طريقة، وكان رأي السلطة الروحية التي نشأت في ذلك الوقت أن الاختيار على مستوى العقيدة هو التعرض لخطر السقوط في الهرطقة وعليه تقوم الكنيسة بتلك المهمة. واعتمد الهراطقة جميعهم على الإنجيل في إثبات ما يدعونه، وكان أكثر شيء تم الجدل فيه ومحاولة إثباته من الإنجيل نفسه هو شخصية سيدنا عيسى عليه السلام، هل هو إنسان أكثر مما هو إله أو إله أكثر مما هو إنسان، وأريقت الدماء بل ملاين الدماء في هذا السبيل.وكلما ظهرت جماعة هرطقية كانت تعقد المجامع ويتم إرسال الرسائل البابوية والإدانات البابوية ويتلو ذلك أداة التعذيب البابوية (المفتشون) والمحارق التي تشوي الهراطقة، ومع ذلك تعود القضية التي وصفت بأنها هرطقة تعود إلى الظهور مرة أخرى، ونجد هنا غياباً تاماً للشعب المسيحي في التكفير أو اتخاذ القرار فقد كان اللاهوتيون – الرسميون منهم أو المنشقون – هم الذين يتولون هذا الأمر.

وتأتي قضية أخرى تالية لقضية السلطة أو الحرية وهي قضية الوحدة والتنوع ، هل يمكن لجميع المسيحيين أن يوحدهم إيمان واحد أو إن الاختلاف يمكن أن يعتبر نوعاً من التنوع وليس نوعا من الهرطقة، فالكاثوليك (الكنيسة الجامعة) يرون ضرورة أن يكون الإيمان الجماعي واحداً ولكن البروتستانت يرون أنه يحسن أن يتمكن الفرد من تحمل مسؤوليته الدينية لوحده وبذلك يفتحون الطريق أمام قبول الآخر.

وهكذا يتضح لنا من تنظيم صفوف الكاثوليكية بُعْد حركات الإصلاح واتجاهاتها نحو الانضباط والوحدة في العقيدة إلى أن ألفت الهرطقة والمهرطقين، وحتى البدع التي كادت تؤدي بالكنيسة سابقا مثل الآريوسية والكاثارية والنسطورية ألفتها وتعايشت معها، ولكن الخطر الذي واجه الكاثوليكية بعد ذلك في اعتقادي أشد من خطر الهرطقة إذ كان الهراطقة مؤمنين ويبحثون عن إصلاح الكنيسة، أما المنشقون عن الكنيسة الكاثوليكية قي العصر الحديث فغالبيتهم تتجه نحو الإلحاد أو عدم المبالاة تجاه الكنيسة والدين بصورة عامة، مما حدا بالبابا بيوس الحادي عشر إلى قوله في رسالته البابوية "نحن نواجه عالما سقط مجددا جزء كبير منه في الوثنية"، وهذا يقودنا إلى قضية هامة تواجه المسيحية، فالخطر الذي تواجهه ليس في البدع الانشقاقية أو الهرطقة أومعايير الكفر والإيمان، سواء كانت كاثوليكية أو بروتستانتية إنما قضية رفض الدين بكامله، الأمر الذي يهدد المسيحية بكاملها، لقد هاجم الفاتيكان الليبرالية وظن أنها أصل الإلحاد (ليون التاسع، ليون الثالث عشر،ليوس العاشر، وليوس الحادي عشر).

ولكن مع أن الليبرالية أعطت الحق للفرد في اعتناق ما يراه أفضل إلا أنها فتحت الباب أمام العلمانية وأصبحت العلمانية في حد ذاتها عقيدة دينية أو ديكتاتورية دينية تتبنى قضايا حقوق الإنسان على أسس علمانية بعيدا عن الكنيسة مما دفع الكنيسة إلى التوافق مع الوضع الجديد الذي هدد سلطانها بالزوال. ولكن مع قوة دفع العلمانية في أمريكا وأوروبا الغربية ونتيجة لظروف خارجية وخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي بدأت المسيحية تحاول الاستيقاظ والانتباه إلى نفسها.

ونجد من أبرز علامات ذلك الاتجاه النظرة العدائية ضد الإسلام، وخاصة في عهد الرئيس بوش ومسألة النقاب والمآذن فقد اتخذت هذه الصور مظاهر المسيحية الأصولية التي لا تقبل الآخر، ولأول مرة في الغرب الحديث

يبدأ صراع بين العلمانية الداعية للحقوق المتساوية والمسيحية الأصولية التي تحاول الحد من انتشار الرأي الآخر الذي يتمثل في الحرية المطلقة للإنسان التي يتبناها التيار العلماني.

وقد ادعت السلطة المدنية عبر العلمانية ادعت لنفسها حقوقا على الشعب كانت هذه السلطة إلى وقت قريب ملكاً للكنيسة وفي كثير من الحالات أظهرت سلطة العلمانية تشددا أكبر من سلطة الكنيسة، فقد ادعى موسليني أنه رجل العناية الإلهية، وكذلك في الصحف النازية كانت تردد أن الله أرسل لنا مخلصا هو الفوهر. وأصبح الكثير من المنظمات المدنية تدين بالعلمانية ولا تجرؤ الكنيسة على اتهامها بالكفر.

لقد كافحت الدولة الغربية في القرون الأخيرة لنصرة الليبرالية، فهل يمكن القول إن سلطة الليبرالية سوف تنتصر ؟؟!

لقد تبادل المسيحيون خلال القرون الماضية الكراهية بدلا عن التسامح والمحبة، تبادلوا الكراهية باسم الله وقد كتب احد مفكريهم جان جاك روسو قائلا "كنت أنظر إلى هذا التنوع في البدع التي تسود عالمنا وبتبادل الاتهام بالكذب والضلال، وكنت أسأل أيها هي الصالحة؟، وكان كل منهم يجيبني تلك الخاصة بي".

وفي ظل هذا الغلو والفجور في الخصام وما نتج عنه من إصلاح ثم تفكك للمسيحية ألا يمكن أن يفكر المسيحيون بتعقل في ماضيهم وينحازوا إلى محكمة الضمير التي تزن الأمور وتختار بحرية، وأحب أن أختم بقول جان دارك تلك التي أحرقتها نيران الهرطقة عندما سئلت هل كانت تظن أنها في نعمة، قالت (إذا لم أكن فيها فليجعلني الله فيها، وإن كنت فيها فليبقني الله فيها).

المراجع

- العهد الجديد–إنجيل متى الإصحاح ٢٦ ٦٥–٦٦.
- العهد الجديد–إنجيل متى الإصحاح التاسع ٣–٤.
- عبد الرحمن الخطيب– صحيفة الحياة السعودية 31–٣–٢٠١٠.
- ج.وتلر – الهرطقة في المسيحية، تاريخ البدع والفرق الدينية المسيحية – ترجمة جمال سالم – دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – ٢٠٠٧م.
- الهرطقة في الغرب د.رمسيس عوض–دار سينا للنشر– القاهرة ١٩٩٧م.
- إنجيل متى الإصحاح الخامس ١٧–١٨.
- إنجيل متى الإصحاح الخامس ٢٣–٢٥.
- إنجيل متى الإصحاح الخامس ٤٣–٤٥.
- أعمال الرسل– إصحاح ٦–٧.
- علم اللاهوت المقارن/ الهرطقات– تعالم الأنبا غريغورس أسقف عام الدراسات اللاهوتية والبحث العلمي– مطبوعات الكلية الاكليريكية للقبط الآرثوذوكس٢٠١٠م.
- الرسالة الدورية إلى الأساقفة– اناسبوس ١٨ :٥.
- إنجيل متى الإصحاح ٢٨–٢٩.
- أسرار الكنيسة السبعة في الطقس القبطي– تأسيس سر الكهنوت– بطريركية الأقباط الاثودوكس– القاهرة.
- خلافاتنا مع الكنيسة الكاثوليكية– ارمبا المجتهد.
- أعمال الرسل– الرسالة إلى أهل أفسُس ٦٠.
- العهد القديم– سفر اللاويين الإصحاح ٢٤–١٦.
- العهد القديم– سفر الملوك– الإصحاح ٢١.
- الإلحاد في الغرب– رمسيس عوض ١٩٧٧– دار النشر العربي– بيروت.
- الرسالة الأولى إلى أهل (تيموثاوس)– الإصحاح الرابع ٦–٧.

- تاريخ كنيسة الغرب— جون هس تأليف د.يواقيم رزق مرتضى.
- الأصولية المسيحية في القرون الأولى– إبراهيم الحيدري.
- قصة الحضارة– ويل ديورانت م/٦/ك/١/ب/٢ ص ٧٦٤٢.
- St.Paul and Protestantism with an essay on Puritanism and the church of England–Arnold Mathew, Macmillan. New York, USA 1883
- Art3, Fredrick. The mind of the middle ages 200–1500. Historical survey clarendon press Chicago, USA 1945
- Cadman parkes: The three religious leaders of Oxford and their movement (John Wycliffe. John Wesley, John Henry Newman) Macmillan company, New York, USA 1916.
- Cragg, G:from Puritanism to the age of reason: A study of changes in religious thoughts within the church of England 1660–1700 – Cambridge, England 1950.
- Dickens ,A.G:The age of humanism and Reformation in Europe in the fourteenth and the sixteenth centurie, prenticetlall international inc.London, England 1977.
- Gibon,Edward:The decline and fall of the roman Empire ,London, UK 1994
- –Encyclopedia Britannica vol30 Robert, P.Gwinn
- قصة الحضارة– المكتبة الإسلامية الشاملة محاكم التفتيش في بداية عصرها٢/١٧ الهرطقة والإصلاح الديني ص ١٢.
- محاضرات في تاريخ الكنيسة الغربية– ٤٦ ، د.يواقيم رزق مرقص٢٠١٠م.
- مصادر الفلسفة بين المسيحية والإسلام– جورج طرابيش.
- الموسوعة العربية– المجلد الرابع– الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم العقائد– البابا والبابوية.
- شخصيات تاريخية – يوهانس ايكارت المعلم– – منتديات السومريين.
- فولتير وزمنه– ديني فايلوت– ترجمه سعاد خليل ٢٠٠٩م.

- عندما كانت أوربا لا تزال أصولية متزمتة– هاشم صالح– مجلة الشرق الأوسط العدد ٩٣٣٥، ٢٠٠٤م.
- الاستبداد الديني وكشف اللثام– د.محمد برينس– حفريات معرفية في أصول الفكر المسيحي– ٢٠٠٧م.
- جوزيف لوكلير– لائحة المقولات والأفكار المحظورة (السيلابوس). ١٩٦٤– مجلة دراسات المسيحية –ص ٧٣٥–٧٤٥.
- The Exposition of the Divine Principles–Dr. Sun Myung Moon 1974 HSAUWC press Washigton DC– 1974.
- العهد القديم– سفر التثنية ١٣:١٠.
- العهد الجديد – إنجيل يوحنا الإصحاح الخامس عشر : ٦.
- ج ج تيلورد– أسقفية روما– ترجمة جورج خوام ١٩٨٧م.
- ويكبيديا الموسوعة الحرة– مدينة أكسفورد– شهداء أكسفورد ٢٠١٠م.
- الموسوعة العربية– المجلد السابع– البروتستانتية.
- العهد الجديد – رؤيا يوحنا ٢:٢٢.